٤ ـ فريزر ودراسة الخرافة

احترام الحياة الانسانية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
المدرس بالجامعة المصرية

أسلفنا القول فى بيان أثر الخرافة فى تثبيت دعائم الحكومة والملكية الشخصية والزواج . وها نحن أولاء نشرح ما غرسته فى النفوس من تقديس للانسان واحترام لحياته ؛ وبذا نكون قد أتممنا سلسلة النظم الاجتماعية التى شاء فريزر أن يبين مقدار تدخل الخرافة فى نشأتها وتكوينها

بديهى أن معيشة البادية المبنية على حب الانتقام ، والأخذ بالثأر ، وحماية الجار ، والدفاع المستميت عن المال والعرض ، والمملوءة بالأضغان والأحقاد أدعى لاراقة الدماء واعتداء المرء على أخيه . فالانسان الأول الذى عاش هذه العيشة المضطربة ما كان ينعم بضمانات كافية لحفظ روحه . فلم يكن له حرس منظم يسهر على حراسته ، ولا قانون واضح يهدد بالعقوبة كل من اعتدى عليه ، ولا محاكم محترمة تشهر بالجناة وسفاكى الدماء . ولا زلنا نشاهد الى اليوم أن القتل وازهاق الأرواح البريئة ينتشر حيث تسود الفوضى والاضطراب وفى الأوساط البدوية والقبائل الهمجية بوجه خاص . بيد أن الجمعية تعالج نفسها بنفسها وتمد لكل داء ما يناسبه من دواء . ولئن فات الانسان المتوحش شرطتنا المنظمة ، وجندنا الشاكى السلاح فانه لم تفته وسائل أخرى من وسائل الدفاع عن نفسه وحقن دمه . ومن بين هذه الوسائل خرافة الأشباح وأرواح الموتى التى تتمثل فى صورة شياطين ومردة تنتقم ممن اعتدى عليها

قد لا تكون هناك خرافة سادت العالم سيادة هذه الخرافة . ظهرت مع الانسان منذ نشأته ، ولازمته فى مراحل التاريخ المختلفة : تبدو فى العصور القديمة والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة ، بين البدو والهمج ولدى الأمم المتمدينة . ويكفى أن نشير الى أن كثيرين منا لا يجرؤون على السير ليلا ـ بل نهاراً ـ بجوار دار قتل فيها قتيل زعماً منهم بأن روحه الثائرة ستفتك بهم . وعلى عادة تغيير المسكن السائدة بيننا على أثر حريق أو وفاة مما ترجع الى هذه الخرافة ، كما هو الشأن لدى بعض القبائل الهمجية . ويقص علينا عامتنا وسكان قرانا أغرب القصص عن المردة الذين لاقوهم فى طريقهم ودار بينهم ما دار من حوار ونقاش ؛ والماهر منهم من استطاع أن ينجو من المارد الذى اعترضه بجواب لبق أو حيلة ماكرة ؛ وحديث « القرينة » والعفاريت ملأ قرانا ومدننا ، وأصبح أشهر من أن يعرّف عنه ، وله طب خاص وقوامون على أمره يتعهدونه بالبخور « والدقة » وما الى ذلك من علاج كله ضلال وبطلان

ليس بعسير على الباحث أن يثبت أن خرافة الأشباح هذه جنت على الانسانية جنايات شنعاء ، فبلت بعض الأشخاص بالخوف حتى من ظلهم ، وقضت على آخرين بالجنون والصرع وكثير من المصائب والآفات . وقعدت بكثيرين عن السعى وراء أرزاقهم خشية أن يعدو عليهم شبح من الأشباح أو روح من الأرواح . وفى بعض القبائل المتوحشة لا يستطيع شخص أن ينتفع بمال أبيه وأهله وذويه بعد موتهم ، لأن أرواحهم تنتقم منه أشد الانتقام غيرة على هذا الحرم المباح والمال المعتدى عليه ، فكل يعيش ليومه ، ولا يعمل شيئاً لغده ؛ وعلى هذا كانت فكرة المستقبل التى هى أساس التقدم الصناعى والتجارى والاقتصادى ضائعة لدى هذه القبائل ؛ وفى ضياع هذه الفكرة ما يتنافى وتكوين الثروة والمتاع ، وكيف تتكون الثروة عند قوم كل همهم من الدنيا عشرات السنين يعيشونها ؛ فاذا ماتوا انقرضت أمتعتهم معهم وبددت أموالهم ؟ يقول أحد كبار الرحالة : « إنه ليس لدى البتاجون (من سكان أمريكا الجنوبية) أى قانون ولا أية عقوبة ضد المجرمين . كل يعيش على حسب هواه ، والسارق الماهر هو الجدير بالتقدير . وليس هناك ما يمنعهم من السرقة واقامة الأبنية الثابتة إلا العقيدة السائدة من أنه إذا مات أحدهم وجب أن تبدد أملاكه . فكل بتاجونى حصل على ثروة طوال حياته بالسرقة أو الصيد أو التعامل مع القبائل المجاورة لا يفيد ورثته فى شىء ، ذلك لان كل ما ادخره يبلى معه ، وعلى أبنائه أن يكوّنوا ثروتهم بمجهودهم الخاص ... وقوم هذه معتقداتهم وتقاليدهم يقنعون بحاجاتهم العاجلة ولا يتعلقون برغبة

حقيقية ، ولا يصوبون نحو غاية بعيدة ؛ وهذا سر كسلهم وتواكلهم ورضاهم بالقليل الذى يتنافى مع التقدم والحضارة ، وعلام التعلق بالمستقبل الذى لا يرجى منه خير أو شر ؟ الحاضر هو كل شيء فى أعينهم ، والمنفعة الذاتية مبدؤهم ؛ فالابن لا يتعهد قطيع أبيه لعلمه أنه لا يعود عليه بطائل ، وإنما يكد ويكدح وحده ليحصل على ثروة شخصية[1] » فخرافة الأشباح والعفاريت والمردة سبب من أسباب الضعف السياسى والاقتصادى لدى بعض الشعوب الناشئة والجاهلة

غير أن هذه الخرافة ليست شراً كلها ، بل كانت عاملا من عوامل الخير والدفاع عن الانسان فى الجميات التى سادت فيها ، فالخوف من الأشباح وعدوانها والأرواح وانتقامها ساعد على حقن دماء كثيرة واحترام الحياة الانسانية . وذلك أن طائفة من الشعوب تعتقد أن أرواح الموتى والقتلى ذات نفوذ عظيم وقوة هائلة تستطيع بها أن تعكر على الأحياء صفوهم وتعترضهم فى طريقهم وتنقمص أجسامهم . وأرواح القتلى بوجه خاص مفطورة على الثأر ممن اعتدى عليها فى شخصه أو فى أهله وعشيرته . لهذا يضطر الأفراد والجماعات لترضيتها بالهدايا والقرابين ، فيذبحون المعز والضأن والديكة والخنازير التى يغسل القاتل بدمها أقذار خطيئته . وأحياناً يحاربون هذه الأرواح ويطاردونها بمختلف الوسائل ويهجرون القرى والمساكن من جرائها . وكم من قرية كانت آهلة بالسكان صباحاً ، ثم قتل فيها قتيل ظهراً فأضحت فى المساء خراباً يباباً ! وقد يمثل بالمقتول أشنع تمثيل لتبقى روحه كامنة فى جسمه وعاجزة عن الثأر له

فالاغريق الأول كانوا يعتقدون أن روح القتيل تتأجج غيظاً ممن اعتدى عليها وتتابعه فى حقله ومسكنه ولا ينجيه منها إلا فراره خارج الديار عاماً كاملا يرجى فيه أن تهدأ هذه الروح من ثورتها . وإذا عاد إلى وطنه سارع إلى تقديم الضحايا والقرابين تكفيراً عن اثمه . وقاتل هذا شأنه يعد شراً يتقى وخطراً تخشاه الجمية لما يحيط به من أرواح ثائرة قد تؤذى كل من حام حوله ، فكان طبيعياً أن تحكم القبيلة على القاتل بمفارقة البلاد الزمن اللازم لتكفير خطيئته وارضاء الروح التى جنى عليها[1] والصينيون كانوا ولا يزالون يؤمنون ببقاء الأرواح وقدرتها على مكافأة المحسنين والانتقام من المسيئين ؛ فهى تتدخل من غير انقطاع فى عالم الأحياء وتتصرف فيه تمام التصرف . نعم إن هناك فرقاً بين الأشخاص والأرواح ، بين الأحياء والأموات ، بيد أن هذا الفرق طفيف والمسافة بين هذه الأطراف قصيرة للغاية . وما الديانة الصينية إلا مجموعة أفكار تدور حول الأرواح وما يتصل بها . وقوم يذعنون للأرواح هذا الأذعان لا يجرؤون على الاعتداء عليها ويقدسون الحياة الانسانية تمام التقديس[2] ويعتقد سكان أفريقية الوسطى أن القاتل إذا قاسم قوماً فى طعامهم أو بات فى كوخهم أحل بهم غضب الله وربما كان سبباً فى هلاكهم ، اللهم إلا إن تداركهم القسس والكهنة بأدعيتهم وتضرعاتهم ، ويزعم بعض القبائل الهندية أن الرجل إذا قتل عدوه لا يسلم من شر روحه الا إن أراق دم خنزير أو جدى صغير ، ومع أن البانتو يعدون الفوز فى المعارك الحربية مفخرة عظيمة وشرفاً لا يعدله شرف فانهم يخشون أرواح القتلى خشية تضل بهم أحياناً إلى الجنون والصرع . ولدرء هذا الخطر يبقى المحارب الظافر فى العاصمة بضعة أيام لا يمس خرقاً بالية آكلاً فى أوان وعلاعق خاصة ، وحرام عليه أن يشرب الماء وأن يقرب النساء وأن يتناول أى طعام دافئ . وإذا قتل أحد سكان الكنغو قتيلاً حمل على رأسه بعض أرياش البيغاء وغطى جبهته بلون أحمر ، وكأنما يريد بذلك أن يستتر عن أعين الروح التى تطارده . وفى غانة الجديدة تسارع القبيلة المحاربة بعد إنجازها هجوماً أو معركة ما بالعودة إلى مسكنها أو إلى قرية محالفة قبل أن يدخل الليل الذى تهيج فيه الأرواح وتتشبث بالقتلة والمحاربين . وفى مقدور الروح أن تتعرف من اعتدى عليها بما لصق بجسمه من دم القتيل أو أى أثر من آثاره . لذلك يطهر المحارب جسمه وحربته بعد أن يتم مهمته ، وإذا وصل إلى قريته حيل بينه وبين أهله وذويه وبقى منعزلاً فترة من الزمن ، وفى اليوم الثالث من وصوله يحتفل به

(١) Alcide d' Orbigny, Voyage dans l' Amérique méridionale, II, P. 99 sq

(١) Platon, Lois IX, 8. — Aristote, Constitutions d' Athénes, 57.

(٢) Groot, The religious system of chiuna, IV, 450. 464

أصدقاؤه احتفالاً مناسباً ، وفي اليوم الرابع يلبس أجمل ثيابه وعدة حربه ويخرج شاكي السلاح مخترقاً شوارع القرية ؛ وعله يرمي بهذا إلى استرداد قوته وشجاعته . وإذا شكا أحد أبناء القرية ألماً في معدته ظن أن ذلك راجع إلى أنه جلس في مكان شغله محارب من قبل ؛ وإذا أصيب بأذى في أسنانه عزاها هذا إلى أنه أكل فاكهة لمسها محارب [1]

وأرواح الآباء والأقارب القتلى بوجه خاص شديدة الهول وعظيمة الخطر ، لأنها تجد وسائل كثيرة للثأر لنفسها وأعرف بدخائل القاتل من الأرواح الأخرى . وقد يكون في هذا ما يفسر قسوة الجمهور إلى اليوم على قاتل أبيه أو أمه أو أخيه . والقوانين الجنائية نفسها مشربة بهذا المعنى في مختلف الأمم والشرائع ، ولأبناء القربة الواحدة من الجلال والحرمة ما للأهل والأقارب ، فلئن استساغ همجي إزهاق روح أجنبية لا يستطيع أن يخفي ذعره من اعتدائه على روح جاره ومواطنه . فسكان الكنغو مثلاً لا يرون غضاضة عليهم في العدوان على القرى المجاورة في حين أن عدوانهم على أبناء قبيلتهم وقريتهم يملؤهم خوفاً ورعباً ، ولا يتردد القاتل في أن يلبس السواد على من قتله ويحزن عليه حزناً شديداً كأنه أحد أقاربه أو أصدقائه ولا يشرب ولا يأكل ويبكي بكاء مراً [2]

وليس خطر الأرواح والأشباح مقصوراً على الأفراد وحدهم بل يتعداهم إلى الجمعية بأسرها ، لأن الأرواح الثائرة ربما تعدو على من صادفها دون أن تميز الجاني من غيره . لذلك تضطر الجمعية إلى تهدئة ثورة هذه الأرواح بشتى الوسائل أو إلى محاربتها والفرار منها . ومن الأمثلة على ذلك أن أهل برمانيا يزعمون أن أرواح القتلى لا تصعد إلى عالم السعادة ولا تنزل إلى عالم الشقاء ، وإنما تبقى دائماً حائرة في الأرض تفزع من تلقى ، ولترضية هذه الأرواح تقدم لها في الغابات المجاورة قرابين من الأرز مصحوبة بالأدعية الآتية : « أرواح من سقطوا من شجرة ، أو من ماتوا جوعاً وعطشاً ، أو من أكلهم النمر والثعبان ، أو من عدا عليهم الانسان ، أو من أهلكهم الطاعون والجرب ، لا تسيئوا معاملتنا ، ولا تؤذونا ولا تثوروا علينا ، امكثوا هنا في هذه الغابة حيث الأرز اللازم لطعامكم [1] » وقد لا تقف الجمعية عند القرابين والهدايا للتكفير عن خطيئة القتل وتهدئة الأرواح المضطربة ، بل تعمل على مطاردة هذه الأرواح بطرق أخرى . فهنود أمريكا الشمالية إذا عادوا من معركة صاحوا صيحات عالية وأحدثوا جلبة وضوضاء يراد بها منع الأرواح من أن تدخل قراهم ، ومن الغريب أنا نجد نفس هذه التقاليد لدى سكان غانة الجديدة الهولندية والألمانية ، وفي استراليا . ويقطع جماعة الأسكيمو المقيمون في مضيق بيرنج عضلات ذراع وجنب القتيل ليحول ذلك دون سيره إن عادت روحه إلى جسمه طلباً للثأر . وفي أفريقية الجنوبية يهشم العمود الفقري تهشيماً منعاً للقتيل من الحركة . وتملأ طائفة أخرى عين القتيل بالفلفل كي تضل روحه السبيل

خرافة الأرواح والأشباح ملأت الناس أفراداً وجماعات ذعراً وهولاً ، ودفعتهم إلى احترام الحياة الانسانية وتقديسها . وما القوانين الجنائية المنظمة ؛ والمحاكم القائمة بين الناس بالعدل والانصاف إلا أثر صالح من آثار هذه الخرافة . حتى الفرد القاتل الأرواح وعدوانها فلم يسرف في القتل حباً لذاته وتعلقاً بشخصه ، ورأت الجماعة في هذه الأرواح خطراً يهدد كيانها فأزالت بالقتلة صارم العقاب ، وسنت ما سنت من حدود تروع الجناة وسفاكي الدماء ، وبذا أضحت الحياة الانسانية محفوظة بعاملين : داخلي وخارجي ، فردي وجمعي ، وعمية بسلاح الاخلاق والقانون

يجهد الفقهاء والمشرعون أنفسهم اليوم في مناقشة النظرية القائلة بأن الحدود جوابر أو زواجر . ويختلف علماء القانون الجنائي في أثر العقوبة : فطائفة تقول إن الغرض منها إصلاح المجرم ، وأخرى ترى فيها القصاص الملائم للمجني عليه ، وثالثة تعدها ترضية لازمة لعاطفة الجمهور الثائرة والمعتدى عليها . وما هذه الآراء المتباينة والنظريات المختلفة إلا منطق مهذب مدخله في تقاليد القبائل الهمجية وتعليل منمق نصبغ به خرافات الشعوب الأولى . وهكذا تصير الانسانية من الخيال إلى الحقيقة ، ومن بحر الخرافة العميق إلى صخور العقل الثابتة ، ومن الخارق للعادة إلى الطبيعي ، ومن المسلم به إلى المنطق

ابراهيم بيومي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة

(١) Guise, On the tripes inhapiting... New Guinea, Journal of the anthroponlogical institute, XX VIII, p. 213 sq

(٢) Weeks, Among Congo cannibals, p. 268

(١) Bringand, Les Karins de la Birmanie p. 208